الفصل الثالث عشر

فلفريدو باريتو

من الممكن أن يكون علم الاجتماع النفسى على درجة من التنوع توازى علم النفس ذاته . وتتضح هذه القضية حينما نقارن نظرية توماس بنظرية فلفريدو باريتو .

باريتو وكتاباته :

ولد عالم الاجتماع الإيطالى فلفريدو باريتو Vilfredo Pareto (١٨٤٨ — ١٩٢٣) فى باريس عن أب إيطالى وأم فرنسية ، ولعل ذلك هو ما يفسر إلمامه باللغتين الفرنسية والإيطالية . وقد عاد باريتو إلى إيطاليا وهو فى الحادية عشرة من عمره . وبعد أن أتم دراساته الأساسية ، تخرج فى معهد الهندسة Polytechnical Institute فى تورين Turin . وعمل لعدة سنوات فى وظيفة مهندس استشارى بالسكك الحديدية ، ثم عين بعد ذلك مراقباً لمناجم استخراج الحديد . وقد تمكن خلال تنقله بين هذه الوظائف من أن يطور اهتماماته بالمشكلات الاقتصادية . وفى عام ١٨٨٢ حصل على ميراث مكنه من أن يكرس بقية حياته للدراسة والبحث .

ولقد نشر باريتو مجموعة من المقالات الممتازة فى الاقتصاد ، مما كان سبباً فى تعيينه أستاذاً للاقتصاد بجامعة لوزان Lausanne فى عام ١٨٩٢ . كما قدم بعد عدة سنوات مساهمات قيمة فى مجال الاقتصاد الرياضى ، نشر بعدها بقليل — وفى نهاية القرن — مؤلفه « الأنظمة الاشتراكية » ، Socialist Systems الذى كان يعتبر فى ذلك الوقت أكثر الدراسات شمولا وعمقاً فى هذا الموضوع . وبعد سنوات قليلة بدأ عمله الأساسى فى كتابه « مقدمة عامة فى علم الاجتماع Ceneral Treatise on Sociology والذى نشر فى عام ١٩١٥ باللغتين الفرنسية والإيطالية . والواقع أن ظروف الحرب العالمية الأولى لم تكن ملائمة لأن يقدم باريتو عملا يتناول المشكلات النظرية ، وكان من نتيجة ذلك أن ظلت دراسته مهملة لعدة سنوات بعد ذلك .

ولقد تضمن كتابه هذا عبارات انتقادية لاذعة للديمقراطية (والتى لمسها باريتو فى أكثر صورها تطرفاً فى فرنسا وإيطاليا) ، مما أثار اهتمام بنيتو موسوليني Benito Mussolini ، الذى كان يشغل مكانة هامة فى ذلك الوقت ، فمنح باريتو مقعداً فى مجلس الشيوخ الإيطالى . ومع ذلك فمن الممكن أن نقول ، إنه قد كان من صالحه أن يرفض هذا العرض .

وفى عام ١٩٣٦ ظهرت ترجمة إنجليزية لكتابه « المقدمة » بعنوان « العقل والمجتمع » Mind and Society . وكانت هذه الترجمة أفضل بكثير من الكتاب الأصلى . ويرجع ذلك إلى عدة اعتبارات ، فقد أرجعت الترجمة كافة الاقتباسات إلى مصادرها الأصلية (وهو ما أهمله باريتو) ، واشتملت كذلك على فهرست ممتاز ، كانت له فائدة كبيرة نظراً لما تميزت به « المقدمة » من إسهاب وعدم تنظيم . وكان من نتيجة ظهور هذه الترجمة أن ازداد الاهتمام بباريتو ، وبخاصة فى الولايات المتحدة منذ أواخر عام ١٩٢٠ . واهتم به بوجه خاص عدد من العلماء الذين لم يتخصصوا فى دراسة علم الاجتماع مثل الأستاذ ل . ج . هندرسون L.J. Henderson بجامعة هارفارد ، والذى تخصص فى الفسيولوجيا . وقد عمل هذا الأستاذ من جانبه على إثارة اهتمام علماء الاجتماع من الشباب بنظرية باريتو ، من بينهم بارسونز T. Parsons وجورج هومانز G. Homans (انظر الفصل الثامن) .

علم الاجتماع ومناهجه :

أهم ما يميز منهج باريتو فى علم الاجتماع هو تأكيده للطابع العلمى (الأمبيريقى) . فهو فى كتابه « المقدمة » يعرض كثيراً من الملاحظات الناقدة لما يسمى بالنزعة العلمية الزائفة عند كونت وسبنسر ، كما نجد أيضاً إشارات ساخرة « للديانات » العلمانية عن التقدم ، والإنسانية ، والديمقراطية . ويرى باريتو أن ما يجنبنا الوقوع فى هذه الفجوات غير العلمية ، هو أن يستخدم علم الاجتماع المنهج التجريبى المنطقى Logico Experimental Method[1] ، والذى يعتمد أساساً على الملاحظة والاستنتاج المنطقى وفقاً لقواعد الاستقراء الأساسية التى حددها جون ستيوات ميل J.S. Mill

(١) يشير مصطلح التجربة فى اللغتين الفرنسية والإيطالية أيضاً إلى الملاحظة المضبوطة .

فالعالم التجريبي (القابل للملاحظة) — في رأي باريتو — يتكون من ظواهر وعلاقات من الممكن إدراكها بالحواس ، وعادة ما يتيسر إخضاعها للقياس .

ومع ذلك كله ، فقد عالج باريتو في كتابه « المقدمة » — بتعمق — مجموعة من الظواهر التي لا تنتمي إلى هذا العالم التجريبي ، وإن كانت تقوم بدور كبير في الحياة الاجتماعية . وهذه الظواهر هي : الأفكار ، والمجردات ، والآراء ، والمعتقدات ، والعواطف . ولكنه اعتقد أن مهمته الأساسية تتمثل في أن يجعل من هذه الظواهر وقائع ممكنة الملاحظة ، بحيث تنتمي إلى عالم الوقائع كما حدده هو . ولقد ترتب على ذلك أن حذر باريتو من اتباع إجراءات لفظية . فهو يذهب إلى أن « العلوم الطبيعية لم تبن على أساس دراسة وتصنيف مصطلحات اللغة العادية ، بل هي تنهض على دراسة الوقائع وتصنيفها ، ومن ثم يتعين علينا أن نفعل ذلك بالنسبة لعلم الاجتماع » (ص رقم ٣٩٦)(٢) .

ويؤكد باريتو — بالإضافة إلى ذلك — أن الأسلوب العلمي يجب أن يقوم على تفسير ما هو غير معروف على أساس ما هو معروف . ومعنى ذلك أن تفسير الماضي من خلال الحاضر هو أفضل من تفسير الحاضر على ضوء الماضي . وهذا المبدأ غالباً ما تغفله البحوث والمؤلفات في علم الاجتماع . وهو يؤكد أخيراً ضرورة تعريف المفاهيم الأساسية في العلم تعريفاً محدداً ، وصياغة نظرياته في مصطلحات دقيقة . ومع ذلك كله فلسنا على يقين من أن كتاب باريتو ذاته يتسق مع هذه المقدمات المنهجية .

النسق الاجتماعي : بناؤه وديناميته :

من أهم إسهامات باريتو في النظرية السوسيولوجية ، تصوره للمجتمع باعتباره نسقاً يحقق توازناً . فقد استطاع علم الاجتماع على أساس هذه النظرية ، أن يهجر النزعة العضوية الفجة ، دون أن يتخلى عن بعض القضايا العضوية الرئيسية .

وإذا كان المجتمع يمثل نسقاً System ، فهو إذن كل يتألف من أجزاء متساندة ، بحيث إن التغير في جزء معين يؤثر على بقية الأجزاء والكل معاً . أما

(٢) اتباعاً لرغبة باريتو ، سوف نشير إلى الاقتباسات في كتابه « المقدمة » عن طريق أرقام الفقرات الواردة فيه .

« العناصر المادية » أو « الجزيئيات » التى يتألف منها النسق فهى — فى رأى باريتو — تتكون من الأفراد الذين يخضعون لتأثير قوى اجتماعية ذات سمات عامة أو ثابتة . وتتحدد حالة النسق الاجتماعى — فى أى وقت — بالظروف التالية : أولا : البيئة الخارجية عن الإنسان . ثانيًا : مجموعة أخرى من العوامل التى تخرج عن نطاق المجتمع فى وقت معين ، وتشمل المجتمعات الأخرى المحيطة به ، وظروف المجتمع نفسه فى فتراته السابقة . ثالثًا : عناصر النسق الداخلية ، وبالذات المصالح والمعرفة والرواسب والمشتقات ، والتى تعتبر مظاهر أو تجليات للعواطف . وقد درس باريتو من بين هذه الظروف بالذات الرواسب والمشتقات دراسة مفصلة .

ومن الواضح أن هذه القاعدة العامة للتوازن ، لا تفسح مجالا للظواهر الثقافية مثل القانون ، والسياسة ، والدين ، والفن . بيد أن إحجام باريتو عن معالجة هذه الظواهر — على نحو واضح صريح — لا يعنى أنه فشل فى إدراك أهميتها . فهى تقوم جميعًا بدورها فى المحافظة على الأنساق الاجتماعية ، ولكنها لا تستطيع أن تقوم بدورها — فى رأيه — إلا بالنظر لمدى قدرتها على الكشف عن العواطف Sentiments الأساسية . ومعنى ذلك كله أن للعواطف دوراً رئيسيًا فى تحقيق التوازن الاجتماعى .

والمجتمع فى رأى باريتو يمثل نسقًا فى حالة توازن . وهذا يعنى أنه يوجد بداخل كل مجتمع قوى تعمل على تدعيم الصورة (أو الشكل) التى حققها المجتمع أو استقر عليها دون أن تتعرض لتغيرات . ويتميز التوازن فى هذه الحالة الأخيرة بأنه توازن دينامى . ويترتب عن ذلك نتيجة هامة مؤداها : أنه إذا خضع النسق الاجتماعى لضغط تمارسه قوى خارجية ليست بالغة الشدة ، فإن قوى النسق الداخلية سوف تدفع المجتمع إلى استعادة التوازن ؛ وتعمل بدورها على إرجاع المجتمع إلى وضعه المستقر[٣] . وتتألف هذه القوى الداخلية — أساسًا — من عاطفة الثورة على أى شىء يعوق التوازن الداخلى . وبدون هذه العاطفة ، يكون من العسير مقاومة أى تعديل طفيف يطرأ على النسق الاجتماعى ، إن لم تتعذر مقاومته على الإطلاق ، وبالتالى يحقق آثاره دون اعتراض . وقد يبدو هذا الموقف شيئًا واقعيًا ، غير أن احتمال حدوثه يكون ضئيلا جدًا فى ضوء

---

(٣) التوازن فى نظرية باريتو — على نحو أكثر دقة — يشير إلى القوى التى تعمل باستمرار على تحقيقه .

عاطفة المقاومة ، وذلك بغض النظر عن عدد الأفراد الذين قد تؤثر فيهم التغيرات الطارئة إيجابيًا أو سلبيًا .

ولقد تدعمت نظرية استعادة توازن الأنساق الاجتماعية — إلى حد ما — من خلال دراسة الاستجابات الاجتماعية للجريمة ، والنتائج المترتبة على الثورات ، وآثار الحرب على المجتمعات . فقد أمكن الكشف فى هذه الحالات وغيرها عن مجموعة كبيرة من الشواهد التى أكدت الطابع المؤقت للتقلبات الاجتماعية والطبيعة الدائمة أو المستقرة للترتيبات الاجتماعية الأساسية .

وينهض تحليل القوى الداخلية على التمييز بين السلوك (الفعل) المنطقى وغير المنطقى . ويكون الفعل منطقيًا — فى رأى باريتو — إذا ما استطاع أن يحقق غاية بطريقة موضوعية ، وإذا كانت الوسائل المتبعة تتفق موضوعيًا مع هذه الغاية فى إطار أفضل معرفة متاحة . أما الأفعال التى تخرج عن هذا النطاق ، فيعتبرها جميعًا أفعالا غير منطقية . (على أن ذلك لا يعنى أنها أفعال مخالفة أو مضادة للمنطق Illogical) . وفى ضوء ذلك لنا أن نتوقع أن تكون الأفعال المنطقية نادرة إلى حد بعيد . ففى كتاب باريتو « المقدمة » لا نجد إلا أمثلة قليلة جدًا لهذه الأفعال ، مثل صياغة النظرية العلمية ، والسلوك الاقتصادى (وإن كان لا يعتبر منطقيًا فى كافة الظروف) ، وسلوك المحامين . ويعتقد أيضًا أن السلوك القضائى ذاته يعد سلوكًا غير منطقى ، والسبب فى ذلك هو أن دور القاضى ينطوى على أمور تفوق مجرد التطبيق المنطقى للقواعد القانونية المجردة على الحالات الملموسة . ويذهب باريتو فى هذا الصدد إلى أن أحكام القضاء تكشف بدرجة ملحوظة عن عواطف رجال القضاء (وهى العواطف التى يشارك فيها بقية أعضاء الجماعة) . بل إن الاحتكام إلى القانون المكتوب ، يعد بمثابة تفسير بعدى لقرار أو حكم أمكن اتخاذه بأسلوب آخر . وقد كتب فى ذلك يقول :

« إن القرارات التى تصدرها المحاكم تعتمد إلى حد بعيد على المصالح والعواطف السائدة فى المجتمع فى وقت معين بالذات ، كما تعتمد أيضًا على تخيلات الفرد وظروفه الطارئة ، ولكنها تستند بالإضافة إلى ذلك كله إلى النصوص أو القانون المكتوب . لكن ذلك يكون بدرجة ضئيلة ، قد لا تتحقق فى بعض الأحيان » (ص رقم ٤٦٦) استخدم باريتو هذا المثال فى مواضع عديدة ، لكى يؤكد نظريته الأساسية عن